



ثقافات المناطق الجبلية الاحتفال بالتنوع وتثبيت الهوية

تعيش في أعالي الجبال مجتمعات محلية ذات ثقافات وتقاليد عريقة وتشكّل تلك الجبال موقعاً للعبادة والحجّ والطقوس الدينية في مختلف أنحاء العالم.

والجبال هي مصدر الينابيع والأنهر ولطالما حظيت بالإجلال باعتبارها موطن الآلهة على مرّ التاريخ. وفي أزمنة الجفاف، كان شعب كيكويو يتوجّه إلى جبل كينيا ويسأل الآلهة نغاي أن يُنعم عليه بالمطر. أما شعب الأنكا، فقد شيّد معابده على أعلى القمم التي ترتفع أكثر من 6 000 متر عن سطح الأرض في جبال الإنديز. وفي الصين، درجت القرى تقليدياً على تكريس معبد لآلهة الجبال المحليّة المسؤولة عن السحاب والأمطار.

وقد احتلّت الجبال مكانة أيضاً في بعض الأديان والأساطير. فجبل سيناء مثلاً مرتبط بموسى وهو الموقع الذي أنزلت عليه فيه الوصايا العشر. وجبل أولمبيا كان يُعتبر موطن الآلهة الإغريقية فيما يُعدّ جبل كايلاش مسكن الآلهة الهندوسية شيفا. وفي اليابان، يستضيف جبل قوسان أقدس الأديرة البوذية في البلاد.

وتُعتبر الجبال متاحف للأدب والسينما والموسيقى والتراث الشفهي أيضاً. وقد شكّلت الجبال انطلاقةً من جبال توماس مان الساحرة وصولاً إلى الأدب الشعري الصيني على غرار قصائد لي باي وهان شان (المعروفة بالجبال الباردة) مصدر إلهام للمؤلفين، بالإضافة إلى الحياة

تحتضن المناطق الجبلية نسبة عالية من الأقليات في العالم. وفي حين أنّ معظمها مؤلّف من أعداد صغيرة من السكان، ثمة مجموعات كبرى أيضاً على غرار مجموعة كنتشوا في جبال الأنديز وشعب أمهारा في إثيوبيا وسكان التيببت واليبي في الصين. وقد ساعدت العزلة نتيجة الحواجز الطبوغرافية الشاقة على نشوء العديد من الثقافات المتنوّعة وعلى المحافظة عليها على حالها تقريباً. لكن لسوء الحظّ أنّ استقرار سكان الجبال، كلّ بما يتمتّع به من قيم ومعتقدات مختلفة، مهدّد بفعل الهجرة والتحضرّ والنزاعات.

وتحتزن الجبال ثروة هائلة من اللغات. فجبال الألب الإيطالية هي معقل لتنوّع ثقافي وعرقي مميّز حيث توجد فيها ما لا يقلّ عن سبع أقليات لغوية أصلية. فاللغة اللادينية مثلاً، وهي لغة رومانسية قديمة، لا تزال محكيّة من قبل أكثر من 30 000 نسمة في جبال الدولوميت وهي سلسلة الجبال الواقعة شمال جبال الألب الإيطالية. وفي جبال القوفاز، هناك أكثر من 50 مجموعة عرقية - لكلّ تقاليدتها من حيث الهندسة والفنون والزّيّ وتُحكي فيها ما لا يقلّ عن 73 لغة أصلية مختلفة.



الجبال والسياحة المستدامة

تعدّ الجبال والمناطق الجبلية المحمية مناطق للجزاء الروحي وأيضاً للإلهام والترفيه والاسترخاء. فالجبال توفر مجموعة واسعة من الإمكانيات لجميع أنواع السّياح، من التّزلج وتسلّق الجبال إلى مشاهدة غوربلا الجبال في رواندا وزيارة الكنائس الصخرية في إثيوبيا. ويرمز جبل إفريست بالنسبة إلى الكثيرين في عالمنا المعاصر إلى الهدف الأسمى الذي قد يطمحون إلى بلوغه، إما كغاية مادية أو روحانية. وإنّ المنطقة النائية، بما فيها القسم الجنوبي الغربي من منطقة التبت المستقلة ذاتياً عن الصين، والمقاطعات المحاذية في نيبال والهند، تشكل حدود الطبيعة المقدسة في جبال كايلاش. وهي تعدّ من المسارات الدينية لأكثر من مليار نسمة في آسيا وهو مقدّس بالنسبة إلى عدد من الديانات، منها الهندوسية والبوذية والبون والجائيز والسيخ.

وقد تنطوي تأثيرات السياحة على الثقافة والهوية في الجبال على فرص وتحديات في آن معاً. فالاهتمام الذي يبديه السّياح في تقاليد وأعراف الشعوب الأصلية من شأنه أن يساعد على إعادة شيء من كبرياء المجتمعات المحلية، خاصة المجتمعات التي تشعر بعزلة في بلدانها. غير أنّ الحد من الفقر وتعزيز المساواة الاجتماعية لا يزالان يشكّلان تحديات كبرى، فضلاً عن الحرص على إبقاء الفوائد الاقتصادية الناشئة عن السياحة لدى المجتمعات المحلية. وباستطاعة السياحة في الجبال القائمة على المجتمعات المحلية أن تكفل مزيداً من الإنصاف في توزيع الدخل وأن تساعد في المحافظة على الثقافات والمعارف المحلية وأن تحدّ من الهجرة إلى الخارج وأن تعطي حوافز لحماية النظم الإيكولوجية في الجبال والسلع والخدمات المتاحة فيها.

ولطالما أدى سكان الجبال أدواراً حيوية لإدارة نظمهم الإيكولوجية. وتمكنوا على مرّ العصور من تطوير نظم مميّزة لاستخدام الأراضي ومقاربات للتكيف مع تغيّر المناخ ونظم غذائية تقليدية ومنتجات جبلية فريدة من نوعها وغنيّة في ظلّ أهمية التنوع البيولوجي على مستوى العالم ككلّ. والجبال هي مصدر العديد من المحاصيل بما فيها الذرة والبطاطس والشعير والذرة الرفيعة والطماطم والتفاح. وتشكّل مصادر الغذاء التقليدية والأصلية حجر الأساس بالنسبة إلى التنوع في النظم الغذائية التقليدية والأصلية لدى المجتمعات المحلية في الجبال الموجودة في البلدان النامية. وغالباً ما تتضمّن هذه الموارد الغذائية غير المستخدمة بالقدر الكافي محتويات أعلى من المغذيات مقارنة بالأنواع المعروفة عالمياً أو الأصناف الأكثر إنتاجاً واستهلاكاً.

وهم يسترشدون في أنشطهم الزراعية وعنايتهم بالبيئة والموارد الطبيعية بنظرة المجتمعات المحلية في الجبال تجاه العالم التي غالباً ما تكون متجذّرة في ارتباطها الوثيق بالأرض. ففي جبال الأنديز مثلاً، تسهر آلهة الخصوبة باشاماما، التي يعبدها السكان الأصليون، على عمليتي الزرع والحصاد وتجسّد الجبال ويُعتقد أنها تتسبب بالزلازل. والطقوس التي تُقام للآلهة باشاماما إنّما توطّد العلاقات بين المجتمعات البشرية ومحيطها الطبيعي وتجمع بين شعوب من عشائر وقرى مختلفة عند مراحل مختلفة من الدورة الزراعية.



مواقع التراث الجبلي والمناطق الجبلية المحمية

تفيد منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) أنّ 376 من أصل 669 محمية من محميات الغلاف الحيوي في العالم أو ما يعادل 65 في المائة تحتوي على نظم إيكولوجية جبلية. وقد أدرجت اليونسكو العديد من الجبال على لائحة مواقع محميات الغلاف الحيوي والتراث العالمي. ويُعدّ جبل كينيا الذي يعلو 1995 متراً عن سطح الأرض ثاني أعلى قمة في أفريقيا. وأعلنت اليونسكو هذا البركان القديم وغير النشط محمية من محميات الغلاف الحيوي في عام 8791 وأصبح موقعاً من مواقع التراث العالمي في سنة 1997. وخلال القرن العشرين، زالت 8 من أصل 81 من الجبال الجليدية في جبل كينيا، وانحسر معها الغطاء الجليدي بما يزيد عن الثلثين. ويقع جبل هواسكاران، وهو أعلى قمم البيرو (6 867 متراً)، في الكورديليرا البيضاء، وهي أعلى سلاسل الجبال الاستوائية الجليدية وأكبرها حجماً في العالم. وأعلنت اليونسكو حديقة هواسكاران الوطنية محمية من محميات الغلاف الحيوي في عام 1977 وموقعاً من مواقع التراث العالمي في عام 1985. وفقدت الجبال الجليدية في هواسكاران ما لا يقلّ عن 13 كلم² من الجليد وما يقارب 40 في المائة من مساحتها مقارنة مع ما كانت عليه قبل 37 سنة من الآن. لكن لا تزال هناك مناطق جبلية هامة لا تحظى بالحماية الكافية لا على المستوى القطري والجغرافي البيولوجي ولا من حيث المجال الحيوي والمنطقة الإيكولوجية. وتشكل الحماية غير الوافية للجبال مصدر قلق نظراً لما تحتويه من تنوع بيولوجي وما توفره من خدمات للعالم أجمع على مستوى النظام الإيكولوجي

أسطورة المياه في جبال القيرغيز

إنّ البيئة المحيطة في مقاطعة باتكين في قيرغيزستان هي بيئة صعبة تحقّق بها جبال صخرية تندر فيها الموارد المائية. وبحسب إحدى الأساطير المحلية، حيث المياه مقدّسة، نشب خلاف على السلطة بين ثلاثة ملوك. فقام الملك الذي يعيش عند أعلى مجرى المياه بسدّ مجرى «سو باشي» الكبير قاطعاً بالتالي المياه عن جميع السكان عند أسفل المجرى. وبعد سنوات عديدة، قرر أحدهم البحث عن مجرى «سو باشي» المفقود. فقصّد المكان الذي وصفه أسلافه في الأسطورة والذي كان يتميّز بوجود شجرة معمرة وهناك اكتشف منبع المياه. ومع أنّ الديانة الإسلامية هي الديانة السائدة في قيرغيزستان، إلا أنّ الشعب القيرغيزي يمارس أيضاً شعائر التنغرية التي تتميّز بعناصر من مذاهب الشامانية والإحيائية وعبادة الأسلاف. والمياه، خاصة مياه الينابيع في الجبال، هي إحدى الآلهة الرئيسية في التنغرية ولا يزال الشعب القيرغيزي يمارس طقوس «إمدو» لتطهير الأطفال. ولا يزال مجرى «سو باشي» يُعتبر في يومنا هذا موقِعاً مقدّساً بالنسبة إلى السكان المحليين. فالناس يأتون إليه من القرى الواقعة عند أسفل المجرى للعبادة ولشكر الله على ما أنعم على أسرهم به من مياه عذبة من الجبال.

المنتجون في جبال الإنديز يعتنون بأمن الأرض

على ضفاف نهر تيتيكاكا وهو أعلى البحيرات القابلة للملاحة في العالم، لا يزال مزارعو الكفاف الأصليون يستخدمون طرق الزراعة المستدامة التي كان يستخدمها أجدادهم. وإنّ الإنتاج الزراعي في منطقة ألتيلانو متدنّ بسبب افتقار التربة إلى المغذيات والمناخ القاسي والقاحل؛ غير أنّ الدورة الزراعية لا تزال تشكل محور ثقافة شعوب أيمارا التي تقطن في هذه المنطقة ومعتقداتهم الروحانية. ويهدف أحد مشاريع منظمة الأغذية والزراعة للأمن الغذائي في أراضي الشعوب الأصلية الخاضعة للزراعة الأسرية في الهضبة الواقعة شمال لاباز، والمنفذ في بويرتو أكوستا، بوليفيا، إلى تعزيز هذه الممارسات الزراعية العريقة والإرث الثقافي الذي يقوم عليها. وتعتمد الأسر المستفيدة من هذا المشروع مبدأ الدورة الزراعية للبطاطس والتاروي وهو نوع من البقول المحلية لإعادة التروحين إلى التربة وإبعاد الآفات الشائعة. وتستكمل المجتمعات المحلية المهام المختلفة من البذر إلى الحصاد بحسب نظام العمل الجماعي الذي يسمى «آيني» والذي يشارك فيه جميع أفراد المجتمع. وتسبق عملية الحصاد طقوس تقضي بتقديم أوراق الكاكاو والكحول الصرفة إلى آلهة الباشاماما لكي تغدق عليهم خيراتهم.

تشجيع الأمن الغذائي لدى المجتمعات المحلية للشعوب الأصلية في بنغلاديش

هضاب شياناغونغ هي منطقة جبلية تقع في جنوب شرق بنغلاديش وتتألف من ثلاث مقاطعات: بندربان وخاغراشاري وراغاماتي. وهذه المنطقة هي موطن لاثني عشر مجموعة عرقية مختلفة، بالإضافة إلى البنغاليين، ويبلغ عدد سكانها 7.1 ملايين نسمة. ولكلّ مجموعة عرقية لغة وثقافة وتقاليد ونظام قضائي مختلف. ولا تزال بعض المناطق تعاني من انعدام مزمن في أمنها الغذائي وفي نقص التغذية فيها. وفي المناطق النائية، لا يزال السكان يتبعون نظاماً تقليدياً للزراعة المتنقلة يسمى «جوم». وخلال العقود الماضية، ساهمت الضغوطات على الأراضي والصدّات البيئية في تقصير مدة دورات «الجوم» مما أدى إلى انخفاض الغلال وازدياد تآكل التربة. ومنذ سنة 3102، قدّم مشروع للمنظمة الدعم لأكثر من 9 000 أسرة معيشية من خلال توزيع المدخلات الزراعية العالية الجودة والتحويلات النقدية وأنشطة تنمية القدرات التي تشجّع الإنتاج الزراعي المستدام والتثقيف التغذوي وتطوير سلسلة القيمة الأساسية. ويجري التركيز بنوع خاص على استخدام البذور المحلية وعلى إعادة النظر في النظم الغذائية التقليدية من خلال عروض طهي مصممة خصيصاً باستخدام الأغذية المحلية والوصفات التقليدية المحسّنة. وجرى تنفيذ أنشطة المشروع بالتشاور مع السلطات الوطنية والمحلية وبالتعاون الوثيق أيضاً مع المستفيدين والمؤسسات التابعة لها تقليدياً تبعاً لمبادئ الموافقة المسبقة الحرة وعن علم.